

# الخطاب الصحفي الاستعماري في ظروف الازمة

أ. لعياض نصر الدين  
أستاذ مكلف بالدروس  
م. ع. ١. ١. ٠

تعددت زوايا النظر للظاهرة الاستعمارية ، وبقت الزاوية الاعلامية الاقل حضورا من بقية الزوايا . وهذا راجع في اعتقادنا ، الى الرؤية الضيقة التي تختصر التاريخ في بعده السياسي وتغفل الابعاد الأخرى : الاجتماعية والثقافية . وأيضا الى النظرة التبسيطية التي ترى الاعلام أداة فقط ، وتسلب منه أهميته في المجتمع . وحتى أن الأعمال القليلة التي أنجزت عن الاعلام والاتصال في بعض المجتمعات المستعمرة لم تتوصل الى تقديم انارة جديدة تكشف عن ابعاد جديدة في الظاهرة الاستعمارية ، أو توضح موقع الاعلام في ميكانيزمات هذه الظاهرة . وذلك لأنها تتوقف عند حدود الدراسات الوصفية والكرونولوجية لوسائل الاعلام في تلك الحقبة التاريخية .

تسعى هذه الدراسة الى الكشف عن مدى استعانة النظام الاستعماري بوسائل الاعلام ، لتثبيت سياسته على المستويين : على مستوى الواقع الحياتي اليومي ، وعلى المستوى النظري أي مستوى وعي صناع هذا الواقع . والتحويلات والتعديلات التي أدخلت على الخطاب الصحفي حتى يحقق ذلك .

يجب أن نوضح في البداية ما المقصود من «ظروف الازمة» . اننا نعني بها على الصعيد النظري ، بداية احتضار النظام الاجتماعي القديم/النظام الكولونيالي ، وبداية المخاض لولادة نظام اجتماعي جديد/ النظام الوطني . ونقصد بها عملياً ، بداية الحرب التحريرية الجزائرية في أول نوفمبر من سنة 1954 .

تنطلق هذه الدراسة من الافتراض التالي :

سعت الصحافة الاستعمارية الى تجسيد مقولة «الجزائر جزء من فرنسا» وهذا من خلال تقديم مادة اعلامية متوازنة عن الحياة السياسية والثقافية والرياضية في فرنسا وفي الجزائر المستعمرة . وهذا لتثبيت في وعي القراء (معمرين فرنسيين ، وجزائريين) بأنهم موجودين في جزء من التراب الفرنسي ومن الثقافة الفرنسية . ولكن مع بداية الازمة تتلاشى هذه الموازنة ويبدو التركيز واضحا على الأوضاع المتغيرة في الجزائر . ويتغير بموجبها الخطاب الصحفي الاستعماري الذي كان يقف عند حد اعلام القراء واخبارهم بالمستجدات وترفيههم وتسليتهم . ويصبح يدعو القراء ، جهرا ، الى الحركة والنشاط للمقاومة ، مقاومة «صناع نوفمبر» .

يقودنا هذا الافتراض الى صياغة التساؤلات التالية :

- هل حافظ الخطاب الصحفي الكولونيالي على المضامين «القديمة» في مادته الاعلامية ، واستمر في تقديمها بنفس اللهجة ؟

- هل أن «ظروف الازمة» دفعت الخطاب الصحفي الكولونيالي الى اعادة النظر في مضمون مكونات العملية الاعلامية ؟ والى صياغة جديدة للعملية الاعلامية على ضوء المتغيرات الجديدة ؟

ستقودنا هذه الاجابة على هذه الاسئلة الى القيام بمحاولة رصد انقلاب الخطاب الصحفي الاستعماري على المفاهيم والتصورات الاعلامية النابعة من المذهب اللبرالي للاعلام ، المحددة لدوره ووظيفته في المجتمع . والى الكشف عن أشكال ترمد هذا الخطاب على بعض النظريات الاعلامية التي تسعى الى تقديم صورة مطلقة للعملية الاعلامية ، بعيدا عن الشروط الاجتماعية والنفسية التي تؤثر على تشكيل مكونات هذه العملية وعلى أهدافها . وقد ارتأينا أن نتخذ من الجرائد الاستعمارية الصادرة في الجزائر خلال الاسبوع الأول من شهر نوفمبر 1954 مجالا لهذه الدراسة .<sup>(1)</sup>

1 - كان الاستعمار الفرنسي يرى الصحيفة من بين الوسائل الاساسية التي تمكنه من السيطرة على الشعب الجزائري . بدليل أن المطبعة كانت ضمن العتاد الحربي الذي حمله الجيش الفرنسي في غزوه للجزائر سنة 1830 . وقد باشرت هذه المطبعة عملها بطبع أول صحيفة استعمارية تحت اسم «ليستفات دو سيدي فرج» والتي كان يسهر على انجازاتها الجيش الفرنسي وتوزع على الجنود والضباط لتوعيتهم بمهامهم وبالمهدف من احتلال الجزائر . وقد واصلت هذه المهمة عدة صحف أخرى لعل أهمها هي صحيفة «المبشر» التي أوكبت توسع الاستعمار الفرنسي ليطفي كامل التراب الجزائري ، وسعت لاطلاع الجزائريين على مختلف القوانين والتشريعات الاستعمارية (قوانين الاملاك العقارية ، التنظيم الاداري ..) وبلغ حجم الاهتمام الفرنسي بالصحافة درجة التأطير شبه كامل للوجود الاستعماري في الجزائر ، على الصعيدين الافقي (توجد صحيفة واحدة على الأقل في كل مركز عمراني يوجد به معمرون فرنسيون) . وعلى الصعيد العمودي (صدور صحف ناطقة باسم التكتلات المهنية ، لعل ابرزها صحيفة «التل» الناطقة باسم الفرنسيين «المالكين» للاراضي الزراعية والتي تأسست في سنة 1864 بالبليدة .

2 - كانت الصحافة الكولونيالية الصادرة في الجزائر تبلي حاجة المعمرين للاعلام . وتسعى لتوحيد آرائهم ومواقفهم والتعبير عنها . ولا يمكن لأحد أن ينكر ما للمعمرين من وزن وتأثير في صياغة السياسة الاستعمارية ، وهذا بحكم عددهم الذي بلغ سنة 1954 ، سدس (1/6) مجموع سكان الجزائر ، وأيضا ، لموقفهم الانتاجي في الجزائر حيث استولوا على 700 . 726 هكتار من الأراضي المنتجة ، واحتكروا 90% من النشاط الصناعي والبنكي ، وسيطروا على الهيكل الاداري والتقني في الجزائر .<sup>(2)</sup>

(3) - تعدت الرسالة الاستعمارية المجهور الأوروبي (المستوطنين) لتصل الى فئة من الجزائريين ، التي تعدّ نتاج تقاطع عدة قرارات واجراءات (مرسوم 1883) القاضي بتكوين جهاز مدرسي فرنسي جديد في الجزائر ، اجراءات التبشير والتنصير التي شرع في تطبيقها ابتداء من سنة 1867 . هذا اضافة الى العراك الاجتماعي - ثقافي الناجم عن النشاط الاندماجي .

4 - لم يكن نتاج الصحافة الكولونيالية يصب في الفراغ ، بل كان يقوم على أرضية صلبة أفرزتها «المؤسسات الايديولوجية» المختلفة والتي اشتركت ، كل واحدة من جهتها ، في انتاج نفس المواقف والقناعات ، لكن بأساليب مختلفة ، باختلاف خصوصية المؤسسة . فحول نفس المواقف والقناعات تلتقي الاغنية الاستعمارية ، والادب الكولونيالي والصحافة والسما الكولونيالية التي حلل مضمونها الاستاذ فرانسوا شفلدونى قائلا : «ان الهدف من العمل الايديولوجي الذي قامت به السما الاستعمارية هو اقتراح صورة للمتفرج «المتروبولي» يجد فيها نفسه ، بما تحمله هذه الكلمة من قوة المعنى ، يجد فيها شرعية العالم كما هو ، وكما «كان دائما» حتى يتقبل في ذات الوقت شرعية مكانته في العلاقات الكولونيالية كما هي» .(3)

5 - بعد التضيق والمحاصرة التي عرفتھا الصحافة الفرنسية التي تعادي الوجود الاستعماري الفرنسي بدرجات متفاوتة(4) وبعد الملاحقة والمصادرة التي تعرضت لها صحافة الحركة الوطنية الجزائرية ، خاصة بعد الأول من نوفمبر 1954 . بقت الصحافة الاستعمارية هي المصدر الوحيد للاعلام والتوجيه ، ولم تزعزعها وسائل الاعلام الأخرى . وذلك لضعف انتشار أجهزة الراديو خاصة في الأسر الجزائرية . وهذا لا يرجع لموقف سياسي محت من الراديو ، باعتباره رمز السلطة الاستعمارية . ولا لعامل اقتصادي محض (انخفاض الدخل الفردي ، غلاء سعر أجهزة الراديو ، تخصيص جزء من ميزانية الاسرة لشراء بطاريات بشكل يكاد يكون منتظما) . ولكن لاعتبارات ثقافية وحضارية أيضا ، والتي يمكن استنباطها من قول المفكر فرانز فانون : «ان تقاليد الاحترام تتصف عندنا بنوع من الأهمية والتدرج . بحيث يصبح من المستحيل علينا عمليا ، أن نستع على نطاق الأسرة الى برنامج الراديو . فالتلميحات الغزلية ، أو حتى الأوضاع الهزلية التي ترمي الى اشارة الضحك المشار اليها في الراديو تحدث في وسط الاسرة المتحلقة للاستماع وتوترات لا يمكن احتمالها» (5) .

يصطدم كل دارس للصحف الجزائرية الصادرة في الاسبوع الأول من سنة 1954 بعنصرين بارزين يعتقد من أول وهلة انها متناقضان . لكن تكاملهما يتضح من خلال الدراسة والتحليل .

### العنصر الأول : الفرع والتهويل .

احتوت المادة الاعلامية في هذه الصحف على قدر كبير من التهويل والفرع : «الاغتيال الارهابي : 8 قتلى»(6) . «أعمال تخريبية عديدة في منطقة القبائل وقسنطينة»(7) «الوضعية خطيرة في منطقة الأوراس»(8) . بماذا نفسر كل هذا الفرع والتهويل الذي يغطي الجانِب

الاخباري في المادة الاعلامية ويجولها الى صيحة «تخويف» ؟ هل هو ناجم عن عنف الأحداث التي شكلت موضوعا يحتوي على قدر كبير من الاثارة والخروج عن الرتابة ، وهو الشيء الذي تبحث وتتسابق من أجله أية صحيفة ليبرالية ؟ أم أن هذا الفرع قد عبر عن فجائية أحداث أول نوفمبر ، وعن عدم توقع حدوثها . في الحقيقة لم تشك الصحف ولا السلطات الاستعمارية في تطورات الوضع في الجزائر ليلة أول نوفمبر بدليل أن الحاكم العام للجزائر ، قد أدلى بمحديث صحفي الجريدة «التيز» قبل هذا التاريخ بأسبوع<sup>(9)</sup> ولم يشر فيه لا من بعيد ولا من قريب ، الى احتمال انتقال الشعب الجزائري الى الكفاح المسلح ، وهذا رغم استرساله في شرح أشكال استمرار ما أسماه «بالشعور الجزائري المعادي لفرنسا» .

وما يؤكد أكثر عدم توقع الصحافة مثل هذه التطورات في الوضع الجزائري هو لجوء بعضها الى تحميل الثوار التونسيين مسؤولية أحداث أول نوفمبر<sup>(10)</sup> . وانصراف البعض الآخر الى نسب هذه الأحداث الى بعض القادة «الزعماء» في احدى تشكيلات الحركة الوطنية الجزائرية .<sup>(11)</sup>

رغم جهل الصحافة الاستعمارية مصدر الاحداث ، الا أن لجؤها الى هذا القدر من التهويل يكشف في مضمونه عن احساس بأن الشعب الجزائري مقبل على وضع لم يسبق له وأن عرفه من قبل (حتى ابان مجزرة 8 ماي 1945) . ويفصح عن شعور كامن باحتمال حدوث شروح في النظام الاجتماعي في الجزائر . هذا ما يمكن استنتاجه من تأكيد والحاح هذه الصحف على تزامن وقائع أول نوفمبر في عدة مناطق في القطر الجزائري<sup>(12)</sup> . والكل يدرك أن مثل هذا التأكيد ليس مجانا . لأن الشعب الجزائري لم يعرف في تاريخ كفاحه الطويل هذا العنف وهذا التزامن والاتساع .

ان أحداث أول نوفمبر قد دفعت الصحافة الاستعمارية لتقترب أكثر من بعضها مقلصة الفوارق بينها الى درجة نكاد فيها أن نقرأ مادة واحدة عن هذه الوقائع ، ولا تختلف الا في بعض التفاصيل الدقيقة . وفي الصناعة الصحفية . واجتهاد هذه الصحف في ابراز الجانب الاستعراضي لما عرفته الجزائر ليلة أو نوفمبر ، لا يعني أبدا أن التقيد بالصياغة «الليبرالية» للخبر الصحفي . بل يدل على مجهود صحفي يهدف الى زرع الرعب والخوف في النفوس . ويرمي الى تثبيت منطق تبريري للتدخل الاستعماري العنيف لقمع والاضطهاد .

### العنصر الثاني : الترويج لانتصار القوات الاستعمارية .

تخشى الصحف الاستعمارية أن تفهم خطأ ، ويؤول ما تضمنته من فرع وهول بأنه ضعف القوات الاستعمارية وعجزها ، وشدة القوات المناهضة لها . لهذا نجدها تذكر بحزم مظاهر قوة التصدي لدى سلطات الاستعمارية وتؤكد على استعمال الوسائل اللازمة لاضمار «التردد» وتصفية

«الارهاب» . وهذا ما يستنتج من مجرد قراءة عنوان المقالات الافتتاحية والتقارير الصحفية : «ارسال ثلاث سفن حربية الى موانيء مناطق قسنطينة» ، «الطائرات تدعم اليوم نشاط القوى العسكرية في «خنشلة» ، «القاء القبض على 196 شخصا في الجزائر خلال 48 ساعة من مصادرة الاسلحة والقنابل» ، «لقد قطع رأس المنظمة الارهابية» .

ان الترويج لانتصارات الجيش الفرنسي الحقيقية أو المزعومة ليست مؤشرا جديدا في الخطاب الصحفي الاستعماري ، أي أنه ليس وليد الأزمة ، بل تزامن مع تاريخ الاستعمار ومع نشاطه الرامي الى قتل الأمل في النفوس التواقعة أو العاملة على الانفلات من قبضة الفرنسيين حتى أصبح موضع تضرر وتقزز الضباط الفرنسيين أنفسهم . وهذا قول أحدهم متهمكا : «كلما استولى الجيش الفرنسي على دكان أو قام بمناوشة صغيرة مع العدو ، أو خاض معركة (أو بالأحرى شبه معركة) أصبح كل ذلك موضع حكايات مضخمة . فالأمر يبعث على الاسف ، ولا بد من الاقرار بالحقيقة التالية ، وهي أن البلاغ العسكري استحال الى جهاز من أجهزة الدعاية للجيش» (13) .

اذن ، ان اظهار قوة وبطش القوات الاستعمارية الذي يستهدف ترعيب الشعب الجزائري وتثبيط عزائمه ليست سمة جديدة في الخطاب الصحفي الاستعماري . والجديد الذي فرضته ظروف الازمة هو ذاك التكامل النشيط والتعاون الوظيفي بين الأجهزة المنتجة للخطاب الصحفي الاستعماري ، وبقية المؤسسات العسكرية/البوليسية ، والاجتماعية/الاقتصادية . حيث تعيد هذه المؤسسات انتاج نفس الخطاب الصحفي بما يتلاءم ووضعه . وتعطي له الامتدادات التطبيقية ضمن نشاطها اليومي . والمفكر فرانز فانون يقدم عدة أمثلة تؤكد صحة ما سبق قوله ، حيث يذكر أن المعمرين الفرنسيين يجمعون عمال مزارعهم ويعلموهم بأن هذه «العصابة من المتمردين» غير المعروفة في المنطقة قد قتلت في الأوراس أو في منطقة القبائل . أو يهدون الى الخدم زجاجة «ليمونادة» أو قطعة من الحلوى بمناسبة اعدام بعض المشبوهين على بعد بضعة كيلومترات من المزرعة . (14)

ان الخطاب الصحفي الاستعماري لا يستلهم مضمونه من القوة والبطش فحسب ، بل من الحساسيات التي يوظفها لخلق الانقسام وسط الشعب الجزائري . ودفعه للتناحر والاقتيال على أساس تناقض وهمي . وهكذا ، لم يعد التأكيد غير البريء على الكلمات التالية «القبائلي» «الشاوي» ، «العربي» الخ .... ينفع ف الخطاب الصحفي ، بل انفتح هذا الخطاب على «بقايا» الضغائن والاحقاد بين مواطني منطقة واحدة وبين سكان «دوار» (أي قرية) واحدة . (15)

## الخطاب الصحفي الاستعماري والفكر التبيري .

في الوقع الاستعماري تتحدد العلاقة الموضوعية بين المستعمر (بفتح الميم) والمستعمر (بكسر الميم) من خلال القهر المزدوج (القهر الوطني والقهر الاجتماعي) ويصبح ضابط هذه العلاقة هو

«العنف ، المهينة ، الاستغلال ، التبعية» ، وفي الخطاب الصحفي الاستعماري الكولونيالي ، تنقلب هذه العلاقة وتشوه . فيصبح المستعمر (بكسر الميم) : هو القوة المنظمة التي تعمل على تثبيت الأمن والاستقرار والقادرة على تحقيقه . والساعية من أجل رفاهية الشعب وسعادته - كل الشعب ولا تستثني شريحة اجتماعية أو أقلية دينية أو عرقية - وأيضاً من أجل تثقيفه وتحضره . وبالمقابل يوجد المستعمر (بفتح الميم) حشد «الفرنسيين المسلمين» الذي يتكون ممن يبحث عن أمنه وأمن أسرته ويطالب بها ، ويوجد فيهم «شرذمة» «ارهابية» «مخرّبة» «فلاقة» ، «خارجة عن القانون» . (16)

ان الخطاب الكولونيالي لم يكتف بترديد هذه النعوت والأوصاف التي يشع بها الخطاب السياسي . أي أنه لم يقيم بعملية اسقاط هذه الأحكام التقييمية على مناهضة النظام الاستعماري . بل سعى الى نحت صورة ملموسة لهؤلاء في الوعي الاجتماعي . وهذا لاعتقاده بان التجريد يقلل الاقناع ، لذا ، نجد أن المواد الاعلامية تتزاحم لتسترد تفاصيل قصة قيام ثلاثون (30) فلاقا (اسم أطلقه الاستعمار على المجاهدين) ينهب خمس فيلات في منطقة قرب قالمة<sup>(17)</sup> . وفي صياغة هذه الصورة ، يجرّد الخطاب الصحفي المجاهدين الجزائريين من كل خصلة من الخصال التي يفرضها الظرف الثوري : البطولة ، الشجاعة ، التضحية بالنفس ، الرحمة والشفقة الانسانية<sup>(18)</sup> .

من عناصر هذه الصورة تتشكل الارضية التي يقف عليها الخطاب الصحفي الكولونيالي التبريري ليكتسب شرعية استباحة هدر دم المجاهدين في وعي القراء . والتأكيد على أن أحداث نوفمبر تستهدف الابرياء (فرنسيين وجزائريين) يحمل في جوهره دعوة صريحة لطلب النجدة والحماية من القوات العسكرية الفرنسية . (19)

تتعاون وتتكامل قوالب التعبير الصحفي (الخبر ، التقرير ، المقال ، التحقيق) لتنتج في ظروف الازمة ، يشكل ملفت للنظر ، أحكاما تبريرية للوجود الاستعماري . وتقدم قيا لاستمرار هذا الوجود ، ولعل أبرزها هو ما يلح عليه الخطاب الاستعماري . والمتمثل في «الانجازات» التي حققها في الجزائر المستعمرة (بفتح الميم) ، ويتحول الاحاح الى نوع من التساؤل عن سبب توجيه السلاح الى صدر المستعمر (بكسر الميم) ، ومع تصاعد الأحداث الدامية في عدة مناطق من الجزائر ، وجهت الصحافة الكولونيالية نيران غضبها الى الشعب الجزائري (الذي لا يعترف بالجميل) ، وهذا من خلال نشر ما كتبه الصحافة الصادرة في فرنسا والتأكيد عليه : «ان المقارنة بين الظروف التعيسة التي تعيشها شعوب مصر وسوريا وايران والأردن ، وبين تلك التي تعيشها شعوب افريقيا الشمالية كافية وحدها لقياس الفوائد التي تجنيها هذه الشعوب من وجودنا في الجزائر والرباط وتونس»<sup>(20)</sup> ان هذا التأكيد لا يعكس درجة معينة من حقن النظام الاستعماري وطمسه للأسباب التي حركت الشعب الجزائري وحملته السلاح لمكافحة الاستعمار فقط ، بل يعبر في مضمونه عن شكل من أشكال تخويف الشعب الجزائري . تخويفه بالمستقبل الذي يعتقد الخطاب الصحفي الاستعماري أنه لن يكون أحسن من الحاضر ..

أن هذا التأكيد يحضر الأرضية للمجهود الفكري الذي يبذله الخطاب الصحفي الكولونيالي والرامي إلى خلق صورة متعارضة للاستعمار والمجاهدين - فالاستعمار يبذل المجهودات في سبيل البناء والتشييد والأردهار . والمجاهدون يقومون بنشاط مسلحي يمثل في «الارهاب» ، «التخريب» ، «القتل للمعمدة» ، «الحريق» ، «تهب الممتلكات الشخصية» ، «الاعتداء على الأبرياء والعزل» ..

في هذا الوضع التقابلي لصورة المستعمر (بكسر الميم) البناءة والمشرقة وضرورة المستعمر (بفتح الميم) الهدامة الفاتكة . يفتح الخطاب الصحفي الاستعماري المجال للقراء للاختيار والفرز . ومن أجل توفير الفرصة الكاملة لتوجيه الاختيار . يتوقف هذا الخطاب عند حد حدود استعراض أحداث أول نوفمبر فقط وتضخيم جوانبها . ولا يغوص في أسباب ظهورها ولا في أهدافها . بل يتخذ من التفاصيل والاستعراض بعض العناصر التي توحى بأن هذه الأحداث هي «خاصة» . وتمثل غاية في حد ذاتها . وليست وسيلة لتحقيق المستقبل الذي عجزت عن تجسيده الوسائل الأخرى طيلة 130 سنة من الكفاح الشاق .

لا أحد ينكر بأن أحداث أول نوفمبر عبرت بشكل جلي عن احتدام علاقة التناقض بين المستعمر والمستعمر وارتقائها إلى مرحلة التصادمية العنيفة (الكفاح المسلح) . لكن الخطاب الصحفي الاستعماري يقفز على هذه الحقيقة عندما يتدخل لإعادة صياغة هذه العلاقة وتقديمها لجمهور القراء ، حيث يتعمد تجهيزتها ويعرضها على شكل وقائع وأحداث يائسة معزولة عن ماضيها ومقصولة عن المستقبل . فعندما يطمس العلاقة الموضوعية بين المستعمر والمستعمر ، فإنه يبنى على أنقاضها علاقة انسجام وتكامل خالية من القهر والعنف ، لا تفكر صفوها إلا وقائع الأول من نوفمبر التي ليست وليدة قوة منظمة وواعية ، بل نتيجة لتصرفات بعض العناصر (الشاغبة والراغبة) والتي تريد إلحاق الضرر بمستقبل الشعب (الجزائري والفرنسي) . لهذا يجب التدخل والتدخل بحزم وعنف من أجل القضاء عليها . وهكذا يتضح جليا أن ممارسة العنف الشامل والمنظم يحتاج دائما إلى خطاب يشرعه ويألفه للناس . ونعتقد أن الخطاب الصحفي هو الأفضل من يحقق ذلك . وذلك لأنه يتغذى من الخطاب السياسي ويثري هذا الخطاب ويقلل من امكانيات تأويله وتفسيره ويحول أفكاره إلى قوة مادية تحرك المؤسسات الاستعمارية القمعية وأعوامها .

### أشكال الانقلاب في الخطاب الصحفي الاستعماري .

كانت الصحافة الاستعمارية توازن في سادتها بين المواضيع التي تتعلق بفرنسا ، وبين تلك التي تتعلق بالدولة المستعمرة (الجزائر) . وهذا التوجه الاعلامي هو إعادة انتاج للموقف السياسي الاستعماري ، الذي يرى الجزائر ككيان جغرافي واجتماعي وثقافي ، هي جزء من فرنسا . وأيضا لربط المعمرين بنشاط الدولة الأم (وهذا من خلال جعلهم يعيشون نشوة انتصار فرق كرة القدم التي أحبوها وهم صغار ، أو نشاطات الفرق الموسيقية وحكايات نجوم السنا الفرنسية بكل

تفاصيلها) ، حتى لا يشعرون بالانقطاع والانغزال . لكن في حالة الأزمة تتقلب هذه الموازنة وتصبح أحداث الجزائر تغطي الجزء الأكبر من الصفحات الأولى والأخيرة من الصحف الاستعمارية ، وتختصر كل الأخبار عن الجزائر في «أحداث الشغب» ، وتقلص الحياة في الدولة الأم (فرنسا) في الصحف الاستعمارية ، لتصبح عابرة عن مجموعة من التصريحات والبيانات التي تصدرها هيكل الدولة الاستعمارية والمتضمنة الموقف من هذه الأحداث .

ان الصحف الاستعمارية الصادرة في الجزائر أخذت بعض الحرية وابتعدت بأشكال مختلفة عن الحكم المركزي في فرنسا ، وهذا في ظروف السلم ، حيث كانت لا تتردد في أن تميز نفسها ، باعتبارها ناطقة باسم العمرين في الجزائر ، فتوجه بعض الانتقادات للسلطة المركزية ازاء الوضع في الجزائر . لكن في ظروف الازمة تقلص هذه الحرية وتندثر ويصبح الخطاب الصحفي الاستعماري مكبر صوت الحكم المركزي .

ان تعدد وتنوع الصحف الاستعمارية الصادرة في الجزائر والذي جاء للتعبير عن توسع النشاط الاستعماري وعن الارادة لدفع الشرائح والفئات الاجتماعية التي يعرفها المجتمع المستعمر (بفتح الميم) نحو الانسجام والتلاام الفكري . وفي الغالب ، يبرر هذا العدد الكبير من الصحف بتثبيت النظام الاستعماري بليبرالية الاعلام التي تؤمن بالحق في الكلام وحرية التعبير . وهذا ، ما نلاحظه بشكل جلي من القراءة الأولى للعدد الأول من جريدة صدى الجزائر (Echo d'Alger) والذي برر فيه الناشر سبب اصدار هذه الجريدة قائلا : «ان اصدار صحيفة صباحية ثانية\* يجد تفسيره في الضرورة التي يقتضيها الاعلام الليبرالي ، وستعمل «صدى الجزائر» على تشكيل الثقل الموازي للاحتكار الاعلامي الذي أصبح خطيراً فعلاً»<sup>(21)</sup> .

ان التشيع للمذهب الليبرالي في الاعلام معناه تقييد الصحافة ورسائل الاعلام الأخرى ببعض الضوابط المنظمة للنشاط الصحفي وهي الحرية في اصدار الصحف بما يضمن تنوع المعلومات والاراء والقناعات ، وأيضاً التقييد بالوظائف العامة للاعلام وهي : الاخبار والتنوير والترويج .. لكن كل هذه الضوابط تتلاشى وكل هذه الوظائف تختفي بمجرد أن يشعر النظام الاستعماري بأن موقعه المهيمن والمسيطر قد أصبح في خطر . وان مكانته قد بدأت تهتز فيبدأ بمصادرة الصحف المعارضة ويلاحقها بنفس درجة ملاحقة التنظيمات السياسية والمهنية المعارضة له . وهذا ما تجسد فعلاً في الجزائر بعد حوالي ثلاثة أيام فقط من أحداث أول نوفمبر . وفي نفس الوقت اختفى التباين الطفيف الذي كان موجوداً في الصحف التي سمح لها بالاستمرار في الصدور . واقتربت من بعضها بشكل لم يسبق له مثيلاً ، وهذا بعد أن تغير مضمون المادة الصحفية وتصبح عبارة عن نداءات متواصلة للتعبة ولتطويق «أحداث نوفمبر» والتصدير المنظم لكفاح الشعب الجزائري .

ان ظروف الأزمة لم تولد التغيير في محتوى المادة الاعلامية فقط ، بل أحدثت انقلاباً في مجمل عناصر العملية الاعلامية . فالجمهور المشكل من القراء الفرنسيين والجزائريين لم يعد كتلة

«هامدة» تتلقى «حقها» من الاعلام والترفيه بشكل سلبي . بل تحول الى مجموعة من التكتلات الواضحة والمحددة بموقعها الجغرافي وبسمات المنطقة التي تنتمي اليها . وأيضاً بقسماتها الثقافية والنفسية . فالخطاب الصحفي الاستعماري تحول من التوجه الى الجمهور المطلق الى مخاطبة هذه التكتلات ودعوتها الى الحركة والنشاط لمساندة الجهود المحلصة لابقاء النظام الاستعماري في الجزائر<sup>(22)</sup> . وحتى أن شكل العملية الاعلامية التي كانت تأخذ الشكل الرأسي قد تغيرت هي الأخرى . حيث كانت العائلات التي سيطرت على النشاط الاقتصادي والسياسي في الجزائر ، مثال : رؤول فيري ، وفيليب رولاند ، وشفالي وليريالد مروال ، وشارل ماتيك .... هي التي تملك الصحف الاستعمارية وهي التي تقرر أن يطلع القراء على هذه الأحداث وليس غيرها ، وفي هذا الوقت وليست في وقت آخر وبهذه الصيغة وليس تلك ، ومن أجل أحداث هذا الشكل من التأثير بعينه . فحافظت على هذا الشكل من الاعلام ، لكنها غيرت مضمونه في ظروف الأزمة . حيث فسحت المجال للجمهور/المواطنين وأشركتهم في تحرير المواد الاعلامية وهذا بابداء رأيهم وتقديم انطباعاتهم (دهشتهم) حول ما يجري ، وتقديم شهاداتهم واقتراحاتهم ، أي أنها قالت ما أرادت أن تقول على لسان المواطنين وهذا ما جعل المادة الاعلامية تظهر في صيغة جديدة ، أي أنها منتجة من الجمهور وتعود الى الجمهور توخيا لمزيد من المصادقية ولتحقيق الغاية من الاعلام في ظروف الأزمة : أي اتخاذ موقف نشيط من أحداث نوفمبر .

وضمن هذا الانقلاب ، اعيد النظر في الرؤيا الى «الجزائر» فبعد أن كان يغذي صفحة المنوعات ويشكل مادة صحفية لصيانة أخبار الطرائف والجرائم والمفارقات . وبعد أن كان حضوره على الصعيد الصحفي يتجاوز صفحة المنوعات ليصل الى صفحة الرياضة . نجده في ظروف الأزمة يتحول الى مصدر للاخبار الصحفية ، ومركز اهتمام الخطاب الصحفي الذي لا يتوانى عن الكشف على قلقه على المستقبل «الجزائري» اذا استمرت الامور على ما هي عليه من «أعمال العنف والتمرد» وعن حقه في الحياة في ظل الاحترام والأمن .

- ان ظروف الأزمة قد دفعت المؤسسات الصحفية الاستعمارية لتعيد النظر في علاقاتها مع بقية المؤسسات الاجتماعية والسياسية والبوليسية ، وتبحث عن أشكال تكاملها لتثيت بعض القناعات المبررة للوجود الاستعماري واستعمال العنف من أجل ابقاء هذا الوجود . الشيء الذي جعل المفكر فرانز فانون يقول أن الرسالة الإستعمارية قد بلغت من القوة ومن تعدد الصيغ التي تفرض بها لجعلها حقيقة الى درجة جعلت المستعمر (بفتح الميم) لا يملك في كثير من الأحيان إلا قناعاته الداخلية والتي لا تقاس ليواجه بها الهجوم الصارم للصحافة الاستعمارية<sup>(23)</sup> .

- ان التوجيه والتسييس والأدلة التي كان يرفضها المذهب الليبرالي للاعلام ، من خلال الاحاح على ضرورة قيام منافسة بين وسائل الاعلام من أجل اخبار وترفيه الجمهور فقط . تصبح شديدة الحضور في ظروف الأزمة ، ويتعدى عنفها وشدها عملية استدراج الجمهور نحو مواقف واضحة أو مستترة ، بل تتحول الى قوة ضاغطة تفرض نفسها على الجمهور خاصة بعد أن

«هامدة» تتلقى «حقها» من الاعلام والترفيه بشكل سلبي . بل تحول الى مجموعة من التكتلات الواضحة والمحددة بموقعها الجغرافي وبسمات المنطقة التي تنتمي اليها . وأيضاً بقسماتها الثقافية والنفسية . فالخطاب الصحفي الاستعماري تحول من التوجه الى الجمهور المطلق الى مخاطبة هذه التكتلات ودعوتها الى الحركة والنشاط لمساندة الجهود المحلصة لابقاء النظام الاستعماري في الجزائر<sup>(22)</sup> . وحتى أن شكل العملية الاعلامية التي كانت تأخذ الشكل الرأسي قد تغيرت هي الأخرى . حيث كانت العائلات التي سيطرت على النشاط الاقتصادي والسياسي في الجزائر ، مثال : رؤول فيري ، وفيليب رولاند ، وشفالي وليريالد مروال ، وشارل ماتيك .... هي التي تملك الصحف الاستعمارية وهي التي تقرر أن يطلع القراء على هذه الأحداث وليس غيرها ، وفي هذا الوقت وليست في وقت آخر وبهذه الصيغة وليس تلك ، ومن أجل أحداث هذا الشكل من التأثير بعينه . فحافظت على هذا الشكل من الاعلام ، لكنها غيرت مضمونه في ظروف الأزمة . حيث فسحت المجال للجمهور/المواطنين وأشركتهم في تحرير المواد الاعلامية وهذا بابداء رأيهم وتقديم انطباعاتهم (دهشتهم) حول ما يجري ، وتقديم شهاداتهم واقتراحاتهم ، أي أنها قالت ما أرادت أن تقوله على لسان المواطنين وهذا ما جعل المادة الاعلامية تظهر في صيغة جديدة ، أي أنها منتجة من الجمهور وتعود الى الجمهور توخيا لمزيد من المصادقية ولتحقيق الغاية من الاعلام في ظروف الأزمة : أي اتخاذ موقف نشيط من أحداث نوفمبر .

وضمن هذا الانقلاب ، اعيد النظر في الرؤيا الى «الجزائر» فبعد أن كان يغذي صفحة المنوعات ويشكل مادة صحفية لصيانة أخبار الطرائف والجرائم والمفارقات . وبعد أن كان حضوره على الصعيد الصحفي يتجاوز صفحة المنوعات ليصل الى صفحة الرياضة . نجده في ظروف الأزمة يتحول الى مصدر للاخبار الصحفية ، ومركز اهتمام الخطاب الصحفي الذي لا يتوانى عن الكشف على قلقه على المستقبل «الجزائري» اذا استمرت الامور على ما هي عليه من «أعمال العنف والتمرد» وعن حقه في الحياة في ظل الاحترام والأمن .

- ان ظروف الأزمة قد دفعت المؤسسات الصحفية الاستعمارية لتعيد النظر في علاقاتها مع بقية المؤسسات الاجتماعية والسياسية والبوليسية ، وتبحث عن أشكال تكاملها لتثيت بعض القناعات المبررة للوجود الاستعماري واستعمال العنف من أجل ابقاء هذا الوجود . الشيء الذي جعل المفكر فرانز فانون يقول أن الرسالة الإستعمارية قد بلغت من القوة ومن تعدد الصيغ التي تفرض بها لجعلها حقيقة الى درجة جعلت المستعمر (بفتح الميم) لا يملك في كثير من الأحيان إلا قناعاته الداخلية والتي لا تقاس ليواجه بها الهجوم الصارم للصحافة الاستعمارية<sup>(23)</sup> .

- ان التوجيه والتسييس والأدلة التي كان يرفضها المذهب الليبرالي للاعلام ، من خلال الاحاح على ضرورة قيام منافسة بين وسائل الاعلام من أجل اخبار وترفيه الجمهور فقط . تصبح شديدة الحضور في ظروف الأزمة ، ويتعدى عنفها وشدها عملية استدراج الجمهور نحو مواقف واضحة أو مستترة ، بل تتحول الى قوة ضاغطة تفرض نفسها على الجمهور خاصة بعد أن

تتدخل المؤسسات القمعية لمرافقة هذا الخطاب وإعادة انتاجه وفق منطقها الخاص .

- تفرض ظروف الأزمة تحديد وضبط عملية الاعلام التي كانت تظهر بشكل مجرد ومطلق حيث أعيد النظر في موضوع المادة الاعلامية وفي محتواها وفي أسلوب تقديمها ، كما أعيد النظر في الجمهور وأصبح أكثر تحديدا وتعبنا من قبل . ضمن هذه التغيرات كلها ، أعادت الصحف الاستعمارية النظر في رؤيتها الى الجزء الثاني من جمهورها (الجزائريين) الذي مكن القول عنه ببعض التحفظ ، أنه كان في السابق شبه غائب في الخطاب الصحفي الاستعماري .

(1) الاعداد التي تضمنتها هذه الدراسة هي تلك التي أصدرتها الصحف التالية : «صدى الجزائر» ، «البرقية اليومية» ، «جريدة الجزائر» ، «آخر ساعة» .

L'Echo d'Alger, La Dépêche Quotidienne , Le Journal d'Alger, Dernière Heure

(2) النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني (1954 - 1962) مطبعة رغاية 1979 ص 84 .

François Chevaldonné : le cinéma colonial en Afrique du Nord, introduction à la sémiologie : OPU, SD. (3)

Claude Collot : le régime de la presse mulsumane algérienne : Revue algérienne des sciences juridiques, (4) économiques et politiques, 1974

(5) فرانز فانون - سوسيولوجية الثورة ، ترجمة دوقان قرقوط - دار الطلبة ، بيروت 1970 ص 64 .

L'Echo d'Alger : de Novembre 1954. (6)

La Dépêche Quotidienne de Novembre 1954 (7)

Journal d'Alger : 3 Novembre 1954 (8)

Times : le 23 Octobre 1954 (9)

L'Echo d'Alger : de Novembre 1954(10)

(11) شرعت «جريدة الجزائر» في البحث عن مصدر التغيرات التي وقعت في الجزائر - ابتداء من عددها الصادر في نوفمبر حيث نشرت فيه تحقيقا صحفيا تحت عنوان «جريدة الجزائر تفتح الملف السري لحزب الشعب الجزائري» .

(12) لتوضيح هذه الفكرة نورد مثالين فقط ، أحدهما يتعلق بما كتبه جريدة الجزائر في عددها الصادر في 3 نوفمبر 54 حيث جاء فيه ما يلي : «كيف تريدون ان نتقبل بان الحرائق وأعمال التخريب والاعتقالات المتعددة التي ارتكبت ليلة الأحد وفي نفس الساعة ، وفي حوالي عشرين نقطة من التراب الجزائري من خنشلة (قسنطينة) الى وهران مروراً بالبنين والأوراس والقبائل والجزائر والمتيجة . ليست أحداث جزائرية ؟»

أما «صدى الجزائر» فقد كتبت يوم 2 نوفمبر ما يلي : «ان اختيار اليوم ، وتزامن الاعتقالات ، وتشابه الأسلحة المستعملة ، والتنظيم لجماعات المهجوم بلباس عسكري خاصة تلك المتواجدة في المناطق الحدودية بين تونس والجزائر . كل هذا يكشف بدهشة عن وجود مخطط محكم التدبير» .

(13) نقلا عن مصطفى الاشرف : «الجزائر ، الأمة والمجتمع» ترجمة د . حنفي بن عيسى - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1983 ص 34 .

(14) فرانز فانون ، سوسيولوجية الثورة مترجمة ترجمة دوقان قرقوط دار الطليعة 1970 ص 70 .

(15) كتبت «صدى الجزائر» في عددها المؤرخ 6 نوفمبر 54 ، تحقيقا صحفيا تحت عنوان : «الفلاحة يؤججون خصوصيات مختلف القبائل» يثيرون فيه الضغائن والأحقاد بين المواطنين في منطقة الأوراس ، ويبعثون فيها الحياة .

(16) وردت في النص الفرنسي كما يلي :

Terroristes, saboteurs, nrigands, fellagha, hors la loi.

Dernière Heure 9 Novembre 1954.(17)

(18) ستكتفي بمساهمة جريدة «الجزائر» في تعريف القراء بالجهاد قرين بلقاسم حيث كتبت في عددها الصادر يوم 6 نوفمبر ما يلي : «القرين بلقاسم من الوافدين على السجون لقد أقام سلسلة من الاعتداءات والاعتقالات فحكم عليه بالاعدام عدة مرات . ففي سنة 1951 تحدى قوات الأمن.(....) فقد قام قرين وعصابته المدججة بالأسلحة بتوقيف إحدى الحافلات وانزلوا سائقها عاشور لحضر . وخطبه قرين قائلاً : «انني قرين بلقاسم أحد قطاع الطرق المشهورين ، وانني أعرف أنك كنت في السيارة المقلدة لرجال الدرك الذين قدموا للاستقصاء والتحرري عني . لاجل هذا حكمت عليك بالموت . وهم قرين بقتل عاشور لحضر لولا تدخل والد هذا الأخير الذي كان ضمن ركاب الحافلة ففدى ولده بمائة الف (100 . 000) فرنك فأخلى قرين سبيل الحافلة وسائقها .

Journal d'Alger : le 4 Novembre 1954 (19)

Bulletin de Paris : le 5 Novembre 1954 (20)

Echo d'Alger : l3e 30 Janvier 1912 (21)

(22) انظر الى المواد التي نشرت في 6 نوفمبر 54 ، حيث بدأ التركيز على قبائل وعلى سكان مناطق محددة ومعينة من التراب الجزائري .

(23) فرانز فانون : سوسيولوجية الثورة ، ترجمة دوقان قرقوط ، دار الطليعة 1970 ص 70 .